أش ٤٩: ١-٩أ

النشيد الثاني لعبد يهوه

الخوري نعمة اللّه الخوري
دكتور في لاهوت الكتاب المقدّس

مقدمـــة

ينتمي هذا المقطع الى مجموعة تتألّف من أربعة أناشيد نجدها في نبوءة أشعيا الثاني (اش ٤٢: ١-٨؛ ٤٩: ١- ٩أ؛ ٥٠: ٤-٩؛ ٥٢: ١٣- ٥٣: ١٢)؛ يستعيد هذا النشيد الثاني بعض الموضوعات التي عالجها النشيد الأول، فيركّز مثله على اختيار الله للعبد ومهمته النبوية، وتعليمه الذي يعطي النور والخلاص، ثمّ يتوسّع في عرض بعض الوجوه الجديدة لشخصية العبد ورسالته. نلاحظ وجود قسمين كبيرين في هذا النشيد تفصل بينهما الآية ٥؛ يشدّد القسم الأول (آ١-٤) على دعوة النبي وعلى بعض التحضيرات لمهمته النبوية، في حين أن القسم الثاني (آ٦-٩أ) يعرض رسالة العبد في إطار شمولية الخلاص. سنعالج دعوة هذا العبد ورسالته بعد عرض الإطار التاريخي لمهمته النبوية، ثمّ نلقي الضوء على شخصيته الغامضة التي ستتوضّح تدريجيًا في أحداث العهد الجديد.

أولا: الإطار التاريخي لهذا النشيد

يعيش هذا العبد بين المنفيّين الذين أُرغموا على الذهاب الى بابل بعد سقوط مملكة يهوذا (٥٨٧)، حين وقع شعب الله ثانية في العبودية، بعد أن تخلّص منها سابقًا على يد موسى الذي أخرج العبرانيين من مصر. إن سقوط العبرانيين في الأسر على يد البابليين هو علامة لحكم الله العادل الذي تخلّى عن شعبه الخائن الذي فقد عددًا كبيرًا، ولم يبقَ منه إلا بقية ضيئلة ينتمي إليها العبد؛ ستعيش هذه البقية فترة زمنية محدّدة في الإستعباد لتستيقظ وتستعدّ لخروج جديد بعد أن تستمع إلى تعليم هذا النبي الذي يحمل رسالة رجاء وأمل بخلاص قريب سيحقّقه الله ليُعيد الشعب إلى أرضه، فيكون هناك شاهدًا للإله الواحد.

ثانيًا: دعوة العبد (آ ١-٤)

توجد علاقة حميمة بين العبد وبين الله الذي دعاه منذ أن كان في أحشاء أمه (آ١)، واستمرّ هذا الارتباط بينهما في الفترة اللاحقة؛ فقد خبّأ الله العبد في ظلّ يده (آ٢)، وهذا يعني أنّ الرب يحميه ولا يستطيع احد ان يقترب من يد الله ليمسّ النبيّ بسوء. يؤمن هذا العبد بحضور الله في حياته، فكلامه يُشبه السيف القاطع لأن مصدره إلهي، وهو يعيش في أمان من أعدائه لأنّ الله خبّأه في جعبته؛ نلاحظ انّ العبد يُشبّه إلهه بالمحارب الذي يحمل الجعبة والسيف والرمح المصقول الذي يُطلقه الله إلى البعيد في وقت الحاجة.

يبدو واضحًا أنّ الله اختار العبد في البرّ والصدق، ولكنّ الواقع يبدو مختلفًا تمامًا لأنّ العبد يعيش في واقع مأساوي؛ فالحياة في المنفى تجعله يشعر باليأس والقنوط، وقد تعرّف في بابل على آلهة غريبة، وهناك خطر من أن يتعلّق بهذه الأصنام بعد أن لاحظ أن إلهه تركه فريسة بين أنياب البابليين.

يعيش العبد في أزمة دعوة، وتعرض الآيتان ٣ و٤ هذه الأزمة من خلال حوار بين العبد والله؛ يؤكّد الله في

بداية الحوار انه يتمجّد بالعبد (آ ٣)، فيجيب العبد انّ الأحداث والوقائع تُشير الى تخلّي الله عنه، خاصة وأنه تعب عبثًا وأتلف قواه (آ٤أ)، وهذه إشارة إلى مقاومة العبد الفاشلة لظلم البابليين؛ هكذا يؤكّد العبد أنه يعيش في عالم من الأوهام بعد أن بذل جهودًا حثيثة ليُعيد الشعب الإسرائيلي إلى عبادة الإله الواحد، غير أن هذه الجهود باءت بالفشل. بعد حالة اليأس استرجع العبد أنفاسه واستعاد قواه، ثمّ أعاد قراءة حياته السابقة، فاكتشف وجود الله في حياته، وتيقّن أنّ حقّه وأجره عند الله (آ٤ب) الذي يخدمه وينال منه الأجر، وهو لن يخشى بعد الآن السقطات المتتالية ولا الاضطهاد الذي يعاني منه.

ثالثا: حدود رسالة العبد (٦-٩أ)

ظنّ العبد، للوهلة الأولى، أنّ رسالته تنحصر بين بني قومه المسبيّين إلى بابل، ويقول النشيد الثاني في هذا المجال: "والآن، قال الرب، الذي جبلني من البطن عبدًا له لأردّ يعقوب إليه، فيجتمع إليه إسرائيل" (آ٥ أ ب). ويُضيف النشيد: "قليل أن تكون لي عبدًا لتُقيم أسباط يعقوب وتردّ المحفوظين من إسرائيل" (آ ٦أ)؛ يُلقي هذا الكلام النبوي على كاهل العبد مهمة خلاص عند الشعب المختار؛ فسيهتمّ هذا العبد بعودة المسبيّين إلى أرض الميعاد. ويستعمل النشيد الفعل "شُوب" أي "عاد"، الذي يتضمّن معنى العودة، ولكنّه يعني أيضًا توبة شعب العهد ورجوعه إلى الله (٤٤: ٢١-٢٢)، وقد استعمل الأنبياء الفعل "شُوب" بكثافة للدلالة على العودة والتوبة في آنٍ معًا (هو ١٤: ٢-٩؛ إر ٣: ١-٤ :٤).

تشير كلمة "المحفوظين" إلى البقية الباقية التي نجت من الموت بعد السبي إلى بابل؛ ستأخذ هذه البقية على عاتقها إعادة بناء وتجديد الوجود السياسي للشعب المختار في أرض الميعاد. ولكنّ رسالة النبي لا تنحصر بإعادة الشعب المنفي إلى أرضه بعد تغيير الظروف السياسية في بابل، بل يتوجّب عليه أيضًا القيام بدور روحي، فيوقظ ضمير الشعب ويدفعه إلى التوبة والتخلّي عن الممارسات الشاذة واستبدالها بإيمان حيّ وفاعل بالإله الواحد الحقيقي.

غير أننا نلاحظ أن اللهجة تختلف في آ ٦ ب: "إني قد جعلتك نورًا للأمم ليبلغ خلاصي إلى أقاصي الأرض"، حيث يشدّد هذا النشيد على شمولية الخلاص، مستعيدًا تعليم النشيد الأول الذي أورد التعليم عينه (٤٢: ٦-٧)؛ وعى العبد تدريجيًا أنه لا يجوز أن يهتمّ بخلاص بني قومه فقط، بل يجب أن تمتدّ رسالته لتصل إلى الشعوب كافة. إنّ عودة البقية الباقية الى أرض الميعاد لها هدف لاهوتي، وهي تدخل في تصميم الله الخلاصي، لأنّ هذه البقية ستكون شاهدة أمام الأمم الأخرى بعبادتها للإله الواحد.

قبل أحداث السبي، انغلق الشعب المختار على نفسه، ورفض الانفتاح على الشعوب الأخرى، وظنّ أنّ الله يفضّل الإسرائيليّين دون سواهم، غير أنّ أحداث الجلاء جعلت الإسرائيليّين يفهمون تدريجيًا معنى شمولية الخلاص. يصف العبد رسالته بين الوثنيّين بأنها "نور الأمم" وهذا يعني أنّ عبادة الأصنام توقع البشرية في الظلام، في حين أنّ التخلّي عن الآلهة المزيّفة هو نور الشعوب.

رابعًا: هوية العبد

من هو هذا العبد الذي أوكل إليه الله مهمة صعبة تقضي بأن يكون وسيطًا بينه وبين البشر ليُذكّرهم بفعالية عمله الخلاصي؟ استعملت الشعوب القديمة كلمة "عبد" للدلالة على الملك، فكان نبوخذ نصّر عبد الشمس وقورش عبد مردوك، واعتبر الشعب اليهودي أن داود الملك هو عبد الله (٢ صم ٧)؛ في فترة الجلاء، اتّخذت كلمة "عبد" بُعدًا آخر، فأضحت تُشير إلى الأنبياء (عا ٣: ٧)، أو إلى الشعب الإسرائيلي (حز ٢٨: ٢٥)؛ إننا نتساءل: هل يتّخذ العبد في النشيد الثاني بُعدًا فرديًا أم بُعدًا جماعيًا؟

تظهر في النشيد الثاني بعض الصعوبات التي تجعلنا أحيانًا نفهم أنّ العبد هو فرد، وأحيانًا أخرى أنّ العبد يُشير إلى جماعة؛ وبالفعل نلاحظ في آ

٣ أنّ الله يتوجّه إلى الشعب الإسرائيلي بشكل عام بقوله: "قال لي: أنت عبدي يا إسرائيل"؛ وفي نهاية النشيد نرى دلالة العبد على الشعب الإسرائيلي بشكل عام (آ ٧)، وهكذا يكون الشعب الإسرائيلي وسيطًا للخلاص بين الله وبين الشعوب الأخرى.

غير أننا نلاحظ، من ناحية أخرى، إشارات عديدة تؤكّد أنّ العبد هو فرد مُميّز في الجماعة التي يتوجّه إليها: هو نبيّ دعاه الله حين كان في أحشاء أمه (آ ١)، وهو يتكلّم بصيغة المتكلّم المفرد في مواضع عديدة من النشيد؛ ولعلّ آ ٦، "قليل ان تكون لي عبدًا لتقيم أسباط إسرائيل وتردّ المحفوظين من إسرائيل"، تتوافق بصعوبة مع دلالة العبد إلى الشعب الإسرائيلي بأكمله، فلا يمكن أن يردّ الشعب نفسه، بل بالأحرى سيتولّى العبد الفرد مهمة إعادة الشعب إلى الأرض.

هذا التباين في وجهات النظر حول تحديد هوية العبد، دفع الشراح إلى تقسيم النشيد الثاني بطرق مختلفة؛ فالذين يشدّدون على الدلالة الجماعية للعبد ينهون النشيد في آ ٩، في حين أن الذين يفضّلون دلالة العبد على شخص فرد يحذفون كلمة "إسرائيل" من آ ٣، ويقتطعون الآيات ٧-٩ من هذا النشيد لأنها تتوافق بصعوبة مع نظرية إشارة العبد إلى شخص واحد.

يبدو أننا لا نستطيع أن نفصل اختبار الفرد عن اختبار الجماعة؛ فالتلازم قائم دائمًا بين العبد وبين الجماعة التي ينتمي إليها؛ ينتقل كاتب النشيد الثاني بسهولة من العبد الفرد إلى العبد الجماعة دون أن يجد صعوبة في التمييز بينهما؛ في هذا الإطار يعتبر العديد من المفسّرين أن الكتاب المقدس يشير أحيانًا إلى فرد يمثّل جماعته، فيتماهى اختبار الفرد في اختبار الجماعة كلها؛ من المحتمل أن يُشير النشيد الثاني إلى عبد يتّخذ هوية شخصية جماعية (corporate personality)، فيكون حاملاً هموم شعبه لأنّ اختباره يتطابق مع اختبارهم ورسالته تنطبق على الجماعة بأسرها.

خاتمة

شدّد النشيد الثاني على دعوة العبد الذي اختاره الله ليُتمّم رسالة خلاص بين بني قومه وبين الشعوب كافة. حاول العبد أن يتهرّب من المسؤولية التي يحمّله إياها الله بسبب الوضع المأساوي الذي تعيشه الجماعة اليهودية في الأسر، ولكنه وافق في النهاية على طلب الله. مرّ إرميا بهذا الاختبار الأليم وعانى في رسالته من هذه الصعوبات، فانتفض على الله وسأله عن عدالته، ثمّ عاد بعد ذلك عن اعتراضه وآمن بوجود الله، فوضع ثقته فيه واستعاد السلام (إر ١١: ١٨- ١٢: ٦؛ ١٥: ١٠-٢١).

لم تظهر إرادة الله بوضوح في شخص هذا العبد، بل ظلّت خفية إلى حين تجسّد ابن الله الذي تواضع وتألّم وحمل آلام البشرية وهمومها؛ نجد في النشيد الثاني للعبد، وفي الأناشيد الثلاثة الأخرى، إشارات بعيدة إلى رسالة الرب يسوع الذي كشف بآلامه وقيامته عن المعنى الحقيقي لتصميم الله الذي أُعلِنَ للعبد؛ هكذا انتظر الشعب بشارة العهد الجديد ليفهم بوضوح إرادة الله التي تهدف إلى خلاص البشر.